

الفصل الحادى عشر

نوابغ فى قوة الذاكرة

من الناس من قوته الفكرية فى الحفظ والذكر غاية فى الحدة والمضاء، كأبى العلاء المعري، والأصمعي، وحماد الراوية. أما أبو العلاء المعري فافتن المؤرخون باستعداد قوته، حتى حدثوا عنه أن الأصوات الأعجمية التى لا يدرك معانيها تتطبع فى ذهنه ويستطيع أن يرددها كما سمعها. وقالوا من غريب حذقه فى قوة التعريض أنه حضر مجلس المرتضى فى بغداد فجرى ذكر المتنبي وكان المرتضى يكرهه ويتعصب عليه، وكان المعري يحبه ويتعصب له، فانتقصه المرتضى وأخذ يتبع عيوبه، فقال المعري: لو لم يقل إلا قصيدته التى مطلعها "لك يا منازل فى القلوب منازل" لكفاه. فغضب المرتضى وأمر بإخراجه وقال المرتضى لمن حضر: أتدرون لماذا اختار الأعمى هذه القصيدة دون غيرها من غرر المتنبي؟ إنها عرض بتوبله"

وإذا أتتك مذمتى من ناقص فهي الشهادة لى بأنى كامل

فقدّر مع ذلك قوة إدراك المرتضى للمغازى البعيدة، والتلميح الذى لا يابه له إلا فطاحل الأدب؛ والنوابغ فى الحفظ والذكر.

وأما الأصمعي فكان كثير الحفظ، قوى الذكر، إماما فى اللغة والغرائب، ويستدل الأدباء على حذقه وبراعته أن اجتمع مع أبى عبيدة عند الفضل ابن الربيع وقد ألف كل منهما كتابا فى الخيل، فلما سئل أبو عبيدة أن يقوم إلى فرس

ابن الربيع ويسمى كل عضو فيه، أبى وقال: لست ييطارا، وإنما أخذت ما كتبت عن العرب. ولما سئل الأصمعى قام وجعل يضع يده على كل عضو ويسميه، وينشد ما قال العرب فيه. فلما فرغ أعطى الفرس.

وأما حماد الرواية فقد استدعاه هشام بن عبد الملك وقطع في سفره إليه اثنتى عشرة ليلة راكبا جملا مهربا، ولما مثل بين يديه قال له: إنها بعثت إليك لبنيت من الشعر خطر بيالى لم أدر من قاله وهو:

فدعوا بالصبح يوما فجاءت قينة في يمينها إبريق

فقال في الحال: هو لعدى بن زيد من قصيدة، وانبرى ينشدها من ذاكرته.

من الناس من قوته أضبط للمرثيات دون المسموعات، ولا قوة الحفظ في ضبط المرثيات يتذكر الأصوات إلا إذا قرنت بكتابة أسمائها أو رسم مسمياتها.

وقد حكى عن أحد البارعين في فن الرسم أنه زار لندن ليقابل أحد أصحابه فنسى اسمه ولكنه رسم وجهه واستعان بذلك على السؤال عنه.

ومن لم تمنحه الفطرة نبوغا في حدة هاتين القوتين فحسبه أن يشحذهما بفهم الأمور وترتيبها وتنسيقها وربط أطرافها بعضها ببعض.

فإن الحقائق المفككة الأوصال يكون مثلها في الذهن كمثل الكتب المبعثرة، يخزنها معها شغفا بالعلم، ولكن سوء ترتيبها يجعل الحصول عليها عند الطلب صعب المنال.

قال أبو نواس في وصف الخمر:

كأن صغرى وكبرى من فقاقتها حصباء درّ على أرض من الذهب

فاعتبر الأدباء المشبه به هنا أمرا خياليا، وما زالوا كذلك حتى تزوج المأمون -أمير المؤمنين- بوران بنت الحسن بن سهل، وقدم إليها ليلة الزفاف حصير نثرت عليه اللآلئ، فتمثل المأمون بهذا البيت وقال: «كأن أبا نواس وهو يصوغ هذا البيت كان حاضرا معنا».

فهذه الحقيقة البديعة التي صورتها قريحة أبي نواس قبل أن تخلق، لم تكن تأتي إلى ذاكرته لو كان ذهنه مضطربا، وحفظه ضعيفا، وذكره على حال لا تستطيع التوفيق بين الأشباه والنظائر.

ومما يدل على تباين درجات هاتين القوتين أن الناس يسمعون موضوعا واحدا، فينقله كل منهم بحسب ما ركز في طبعه من الميول إلى الشكل أو اللون أو العلة والمعلول أو السبب أو المسبوب. وقد سمع بشار بن برد أحد الناس يفسر بيتا من شعره فأعجبه تفسيره، وقال لراويهِ: ارو هذا المعنى فوالله ما عنيته.

والعبارة تصاغ لتؤدي معنى خاصا فإذا هي تختمل معنيين أو أكثر، والقارئ يحتاج حيثئذ إلى مراعاة سياق الكلام ليصرف معناه إلى المقصود منها.

فما أشبه هذه العبارة بجسم بلوري ذي أسطح تنبعث منها ألوان جذابة، يرى بعض الناس منها ما لا يراه الآخر، وكل منهم يعبر عما أبصرته عيناه وخالجه نفسه.

يحضر الناس حفلة الغناء، ويظهرون ما لا قبل لهم به من الانتباه، ثم يخرجون فيترنم أحدهم بتلحينه على مثال الأصل، ويتعثر الآخر في أذيال الخيبة. فالقدرة على إبراز المحفوظات غير القدرة على صيانة هذه المحفوظات، ولا سبيل إلى سبر غور قوة الحفظ إلا بما تظهره قوة الذكر إلا رادى من الأعمال.

وعلى مقدار معاناة الذهن التعب عند حفظ الشيء يكون رسوخه فيه، كالمسار إذا دق في الجدار، حتى إذا ثبت فيه كان استذكاره سهلا. وبديهي أن الإنسان إذا استراح تدفقت على ذهنه تيارات الأفكار، هامة أو غير هامة، سديدة أو غير سديدة. أما التذكر الإرادى فهم محك العقل تنقيد به النفس في دائرة محدودة عند البحث والمناظرة. وإذا جنحت عن الموضوع قام منها رقيب يقود زمامها إليه.

وأحيانا يهمننا استذكار أمر، فننصب له شبك البحث، ونقدح زناد فكرنا، ولكنه يستعصى فنتركه إلى موضوع آخر، وإننا لذلك وإذا بالغرض الذي كنا ننشده قد رفرق على الذهن.

فالسّر في هذا أن الغرض الذي قصدنا استذكّاره قد كان بالموضوع الثّاني أكثر ارتباطاً و غابت عنا حقيقة هذه الرّبط.

الخيال:

هو ملكة قوامها الحلّ والرّبط، وأدنى درجاته ما يستذكر من المحفوظات مع التصرف بالزيادة أو النقصان، وأسماها ما جرى تركيبه على غير مثال، كالتصانغ يتصدى للعناصر فيجمعها ويسبكها في قوالب أخرى، نرى الطّفل لا يريد أن يخضع لغيره، وأقصى أمانيه أن يبعد عن مراقبة الناقدين لكي يجد مجال الخيال واسعاً، غير أن خياله في هذا الطّور طفّل مثله، ليس مضبوطاً ولا خاضعاً لسلطان العقل، ولذلك كلفه بعض المربين مزاوله الحقائق الكونية، وأبعدوه عن قراءة الروايات والخرافات، فإنها لا تزيده إلا انحرافاً عن الحق.

سأل معلم تلميذاً أن يذكر مثلاً للدلالة على أن الحرارة تمدّ الأجسام فقال التلميذ: «إن النهار صيفاً يطول بتأثير الحرارة فيه» فاستعمل القياس ولم يفتن إلى أنه لا ينطبق على الواقع. ولا تكاد تسمع منه جواباً مثل ذلك إذا ضبط خياله، ووقف على حقيقة الأسباب لطول النهار صيفاً، وقصره شتاءً.

للخيال في النوم مجال واسع. انظر إلى الطّفل وهو نائم تجده يتخيل أنه بين يدي مرضعة، فتشاهده يحرك شفّتيه كأنها يرضع ولا ثدى في فمه. حدث تارتنى وهو أحد مشهورى الموسيقيين في القرن الثامن عشر: أنه رأى الشيطان في الحلم خاضعاً له، فناولته تارتنى الكمنجة وأمره أن يلحن بها في نوع من الإيقاع حدده له. فعزف الشيطان بمهارة فائقة تركت في ذهن الموسيقي وهو نائم أثراً عميقاً. ولما استيقظ عادت إليه الذكري من شدة وقع الصوت في نفسه، فأمسك الكمنجة وشرع يحاكي تلك النغمة حتى جاءت مطابقة للأصل، وكان كم أمره أن ابتدع قطعة موسيقية سماها «عزف الشيطان». ولولا أن تارتنى عبر عن ذلك الذي هبط عليه في منامه بأنه شيطان لتوسمناه ملكاً، ولقطعنا بأن السّر الذي وصل إلى خياله نوع

من الإلهام فى الصناعة التى اشتهر تارتينى بها.

ومن تعلق ذهنه بأمر لا تعكر الوسوس والأخيلة فى شأنه مستيقظا كان أو نائما. حتى لقد رأى بعضهم فيما يرى النائم أنه يقاسى من العذاب أشده، ولما استيقظ تبين له أن رجليه لامستا شيئا حارا. وكثيرا ما يخيل له حلمه المفزع أن كابوسا يضايقه، ثم يعرف سبب ذلك أنه كان نائما على جانبه الأيسر ممتلىء المعدة بالطعام. ومفسرو الأحلام يطلعون الحالم على نوع العمل الذى بات ذهنه مشغولا به. فقد روى أن مملوكا مثل بين يدى سيده الملك مدهوشا. وكاشفه بأنه رأى فى منامه أنه يسفك دم الملك، وأقام له الدليل على أنه خادم أمين، ففرغ الملك مما قصه عليه وقال له: «لولم تكن فكرت وأنت مستيقظ فى شيء من هذا ما رأيت فى الحلم» وأمر به فقتل. تهيأت للنوم يوما وأنا حزين لوفاة صديق لي، فرأيت فى الحلم كأن حاديا يغنى بصوت المحزون، فبكيت ثم استيقظت وعيناي مغرورتان بالدموع.

الخيال فى البقطة:

وكما يعرض الخيال للنائم يعرض للمستيقظ؛ والقارئ متى فرغ من قراءة بعض الحوادث المفزعة. يغوص ذهنه فى بحر من الخيال لتصويرها. وإذا أخذ مجلسه فى مكان هادئ، وتشاغل عن شؤونه، وسمح للخيال بالجولان، فسرعان ما يسرح فى الفضاء، ويبنى القصور فى الهواء، ويسلى نفسه بإدراك الأمانى، وعدوه المين هو الذى يقطع سلسلة هذا الخيال الشهى.

ومن الناس من يصوغ الخيال قضاء لغرضه، ثم ينقلب مزاجه فيحسبه صدقا، فإن أشعب كان يؤلمه أن يجرى الصبيان وراءه مصنفين استهزاء به. رآهم على هذه الحال يوما، وأراد أن يصرفهم عنه، فالتفت وقال لهم على سبيل الخيال: «ألم تعلموا أن فى جهة... ثريا يسدى المال إلى كل من دخل منزله» فتركة الصبيان وأسرعوا إلى منزل ذلك المثرى. فلما رآهم ذاهبين إليه وقع فى نفسه صدق هذا الخيال فتعقبهم.

والطبيعيون يعتقدون أن الخيال دليل الباحثين، ولم يعهدوا باحثا وصل إلى

حقيقة مجهولة إلا بعد حدس وتخمين. والناس على بكرة أبيهم يرون البخار الصاعد من القدر الغالية بقوة ترفع غطاءه مهما كان ثقيلاً؛ ولكن «وات» وحده بما أوتيته من براعة في الخيال استنجد بهذه القوة لإدارة الآلات فنجح. ويتخذ الرياضيون والسياسيون طرقاً فرضية لحل المشاكل ثم يحسبون نتائجها ويدخلون بها في طور العمل على سبيل التجربة ولا يزالون يتخللون الوسائل ويتمنحونها من الشوائب، وينصرفون عما تجر عليه من الخطأ، فإذا الحجب تتكشف عن مكنون الحقائق.

الحقيقة ضالة الفلاسفة يحرصون عليها في مدوناتهم، ويتقنون مدلولاتها العبارات المتينة التي لا تدع لللبس مجالاً، ويحترسون من تزويق الألفاظ وتنميق الأساليب، فإنهما يبعدان عن فهم المقصود. وهي كذلك أساس المعاملات، فالتاجر لا ينصف المشتري إذا بالغ في وصف سلعته وجاوز به حدود قيمتها، والطبيب يسيء إلى المريض إذا استعار للدواء اسم دواء يشبهه، وتضيع الثقة من المؤرخ الذي يمجّد من لم ترفعهم أعمالهم. وكم تثور الفتن ويضطرب بين الحلفاء حبل الولاء، إذا راج سوق الخيال في نصوص المعاهدات، فإنه يخرج مدلولات الألفاظ عن سياج المعاجم اللغوية، وإليها وحدها يرجع الأمر عند ما تستحكم حلقات النزاع. أما الأدباء فعلى عكس هؤلاء لا يعذب عندهم ماء القول إلا حاجة الأديب إلى الخيال إذا طرق أبواب المجاز والاستعارة في أمور تحتاج إلى الفراسة وصدق النظر. وكذلك قول المتنبي:

راميات بأسهم ريشها الهدب تصيب القلوب قبل الجلود

فالمطلع على الشطر الأول لا يدرى ألى الحقيقة سار الشاعر أم إلى المجاز؟. ولا يكاد ينتهي من قراءة الشطر الثاني حتى يعرف أن الغرض بالسهم تلك العيون النجلاء على سبيل التجوز.

فالخيال يصون الصنعة من الابتذال، وينفخ في القول والعمل روحاً فياضة،

الفصل الحادي عشر: نوابغ في قوة الذاكرة

ويشحن الذهن، ويدعو إلى الإمعان وترداد النظر، ولو جف معينه من الكتابة أو الشعر أو التلحين لذهبت مسحة البلاغة، ولتجردت من العوامل الحية في تحريك الهمم وإثارة الخواطر. كان ابن الرومي وحيد عصره في الشعر. فقال له بعضهم: «لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه». فقال: «أنشدوني شيئاً من شعره» فأنشدوه في الهلال:

وترى الهلال كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال: «واغوثة لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذاك يصف ماعون بيته وهو ابن خليفة؛ وأنا أي شيء أصف».

فما أخرج الخيال البليغ إلى المراثيات يستحضرها الشاعر ويصوغها في أسلوب جميل يحسب اقتداره ومهارته في الصناعة، بحيث يجمع الكلمات والعبارات، ويُسبل عليه ثوباً قشياً من البلاغة تهتز منه النفس فرحاً. إليك حمدونة الأندلسية ذهب بها الخيال عند وصف الحصى في الوادي مذهباً أجادت فيه وبرزت إذ تقول:-

تروع حصاً حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

ووصف المتنبي صبره وأجاد في خياله حيث قال:-

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

وأبو العلاء المعري وهو كفيف البصر، قبس من نور الطبيعة ما جعل ذهنه سيالاً في سبك الخيال بدرجة يعجز عنها المبصرون. وشعره حافل بمثل هذا الخيال الرائع. وقد راقنى تشبيهه البرق في سرعة تألقه بذى العين القريحة وقد غلبه النوم، يفتحها بدافع المرض ويغلقها حبا في النعاس، وهكذا يتعاقب الفتح والإغلاق على وجه السرعة. ووصف طلوع الفجر بالشيب، والشفق بالزعفران، وادعى على سبيل الخيال أن الليل يميل إلى النجوم الزاهرة، فلما شاب بطلوع الفجر، خاف

هجر النجوم والهجر شيمة الغواني، فوارى شبيه بخضاب الزعفران - أى الحمرة التى تبدو مع الفجر - وخياله من السلاسة والغربة يجرى على هذا النسق مع أنه كف بصره وهو فى الرابعة من عمره ، وهذه المدة على قصرها زودته بالمشاهدات، فلبث يستمد منها فى شعره طوال حياته.

العقل:

هو ملكة تدبر الحركات الإرادية من أى نوع كانت. وقد فصلنا القول فى أن الغرائز تهيمن على الجسم وتقود الإنسان ليعمل العمل بلا رؤية، وتكون غالبا نتائجه سديدة مفيدة، ولكن الخلقين لا يعولون على هذا النفع ولا يشيرون الإنسان من أجله لأنه جاء مصادفة من طريق المقدمات المنطقية. وذلك كاندفاع من لا يحسن السباحة إلى البحر لا بتشال مشرف على الغرق، وكسعى الأم لتخليص ابنها من مخالب الخطر.

وقد بذل جهده مثبتا بالملاحظة أن للحيوان الراقى عقلا مستفادا من الخبرة الذاتية وإن يكن أدنى من عقل الإنسان. رأى فى حديقة الحيوان بأمریکا قردين فى قفص واحد: أحدهما مسن والآخر صغير. وكان المسن لا ينفك يؤذى الصغير كلما بصر به، وأينما التقى معه. وبينما كان الحارس يكنس القفص انقض عليه القرد المسن وقضم قفاه، وكاد يذيقه الموت لولا أن خلصه منه القرد الصغير، فقد عضه فى ساقه عضه أنسته صوابه، وأرجعته عن العدوان. إذا التمسست سبب هذا تبين لك أن إشفاق القرد الصغير ليس من مجرد رؤية القرد الكبير يفترس الحارس، بل لابد أن يكون فكره قد صاغ من مستودعات الذاكرة قضايا هى أن القرد المسن اعتدى على شخصه من قبل، واعتدى على الحارس الآن، فهو مؤذ معتد يجب الخلاص منه. فلما حانت الفرصة وشغل القرد المسن عن نفسه هجم عليه القرد الصغير، وانتقم منه انتقاما يدل على أن إبرازه ليس غريزيا، وإنما أراد ذلك ليقفه عند الحد الذى تتطلبه دواعى الاجتماع.

الفصل الحادي عشر: نوابغ في قوة الذاكرة

فهذه القضايا التي ارتبط بعضها ببعض قد أثارها إحساسه ووجدانه الشخصي والاجتماعي، وهي كالقضايا الأولية التي نشاهدها في الطفل. نراه يمسك اللعبة بإحدى يديه، وإذا رأى مع غيره لعبة أخرى يبكي، وإذا أعطى إياها يسر. فنفهم من هذا قضية بسيطة هي أن نفسه تشتاق الكل أكثر من الجزء، وتعلم أن الجزء أقل من الكل قيمة ومقداراً وإن كان لا يتنبه للتعبير عن ذلك. نراه إذا أراد الجلوس وألزمته الوقوف يبكي ويتزعج إلى الجلوس. فكأنه صاغ قضية مضمونها استحالة اجتماع الضدين: القيام والجلوس في زمن واحد. نراه ينازع غيره في المكان الذي يريد الجلوس فيه، لأنه يعلم أن الجسمين لا يجلان في مكان واحد. نراه يمشى إلى الشيء الذي يريده، لأنه يعلم أن الوصول إليه ممكن. نراه يسأل عما لا يعرف، ومتى شرح له سكت واقتنع، لعلمه أن للأشياء طبائع وحدوداً ومميزات. ونراه يسأل عن فاعل الفعل، ولا يقتنع بأنه جاء بلا فاعل وهكذا. ومتى كبر استعان بتلك القضايا البديهية على صوغ القضايا النظرية، وحاول إبداء الحكم فيها. ومتى اتسع نطاق عقله، وازدادت معلوماته، تجده يتأني ولا يتسرع في الحكم، بل يعرضه على بساط البحث، ولا يؤمله أن يوسع الناس انتقاداً، ولا يمتنع إذا جاء حكمهم مخالفاً لحكمه، وظهر رأيهم فيه أضبط، وحكمهم أصوب، لأنه حيثئذ يهيم الوصول إلى الحق، ولا يبالي أوصل إليه بنفسه أم مشاركة غيره في تمحيص المسائل، وإزالة غشاوة الباطل عنها.

وهكذا يصوغ العقل بمعونة الملكات الذهنية ما شاء من القضايا العامة المستنبطة من المحسّات، ويحتفظ بها، ويذكرها عند الحاجة.

فما أوسع الجمجمة على صغرها! لأن العقل جمع بها شوارد المسائل، حتى يصح أن يقال: إن الإنسان عائش بعقله في جو روحاني فسيح الأرجاء. وإذا كان في هذا مثار دهشة المتأمل، فأبدع منه أن جرثومة الحياة على نهاية صغرها تسع ألوفاً من الصفات الموروثة من الآباء والأسلاف.

الوجدان:

إن المحسّات التي تصل إلى الذهن إما أن تدعو إلى الفرح والجلد وإما أن تدعو إلى الغم والملل وهذا الأثر هو ما نسميه بالوجدان.

سل ضميرك لماذا يتسرب إليك السرور إذا قابلت صديقا حميما،؟ وسبل آخر لماذا يمتعض من الغم وتظهر على محياه ملامح الكآبة؟ ولو التمست سببا لذلك لوجدت أن الارتياح في الأمر الأول والألم في الأمر الثاني كفيلا من هذه النتائج.

نعم للعقل شأن كبير في ترجيح وجدان على آخر، لأننا نرى الطفل إذا مرض ونصحّه الطبيب أن يتعاطى الدواء يأنف أن يلبي الطلب، لأن العلاج له طعم كئيب لا تسيغه نفسه وليس لعقله سلطان عليها. ولكن الرجل الذي يقدر الأمور بعواقبها، لا يؤثر فيه طعم الدواء رغم مرارته، فيقبل على تنفيذه إرادة الطبيب عن رغبة فيها، لأنه يتقن به وطأة المرض ويدفع به غائلة العلة.

وقد يسود المزاج النفسى حكم العقل، فتجد الإنسان يحزن على أمر مما اتفقت العقول على أنه داعى الفرح. قال المعري:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تخطمنا الأيام حتى كأننا ——— زجاج ولكن لا يعاد له سبك
ولأبى الطيب المتنبى:

تصفو الحياة لجاهل أو لغافل عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسوقها طلب المحال فتطمع

وتجد المتفائل يفرح مما يحزن منه الناس غالبا، وتنطبع طبائع البشر على صفحة وجهه، وتصفيه الحوادث الجسام فلا تلتوى قناته، ويسالمها ليستخلص منها لنفسه نصائح وحكما وعبرا. ولا يعبأ بتقلبات الأيام، لأنه يعتقد أن الدنيا مسرح تغدو عليه الناس وتروح، ولكل امرئ منهم شأن يطلبه، حتى إذا أرخى الليل سدوله

الفصل الجادي عشر: نوابغ في قوة الذاكرة

نامت العيون، واستراحت النفوس. وإذا انتهى العمر استعاض عن هذه الحياة حياة أبقى وأهنأ.

ولا تجد مظهرًا لترداد الفرح والحزن متعاقبين كطلعة المقام، علاقة الوجدان بالحركات الجسمية ينحسر الصفقة فيكتب من ألم الحزن، ويربح بعد ذلك فيش من بسطة الفرح، ويستطيع الناظر أن يعرف هاتين الحالين بمجرد الاطلاع على وجهه. وبذلك نطق لسان الشاعر فقال:

نظر العدو بها أسر ييوح

تمى تك في صديق أو عدو تخبرك الوجوه عن القلوب
والعين تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبيها أم من أعاديها
الود لا يخفى وإن أخفيتنه والبغض تبديه لك العينان
لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد من الخبر
وللبارودي:

رب خل تراه طلق المحيا وهو جهم الضمير بالأحقاد
فتأمل مواقع الحظ تعلم ما طوته صحائف الأكباد
إن في العين وهو عضو صغير لدليلا على خبايا الفؤاد

وأحيانا يحصل البكاء من فرط السرور كما يقول الشاعر:

يا عين قد صار البكا لك عادة تبكين من فرح ومن أحزان
وديب الأقدام يرشد كذلك إلى تعرف أحوال النفس. فخطا اللص والجبان

والشجاع والمجرم تخبر عن الحقيقة، حتى لقد عرف لاطو غلي "كيف يصدر حكما عادلا في حادثة خفى فيها المجرم: أمر المشتبه فيهم فأحضروا المشتبه فيهم، ودعاهم جميعا إلى دخول مجلسه والخروج منه عدة مرات وتفرس في أمرهم، ثم استدعى واحدا منهم وحصر فيه التهمة وما أخطأ لأنه رآه آخر الداخلين إذا دخلوا، وأول الخارجين عندما يخرجون.

كذلك تفصح نبرات الصوت عن كثير من الأغراض كالحماسة والفخر والخضوع والاستعطاف والخوف. وللأمهات الذكيات معرفة بأحوال الطفل يستطلعنها من صوته عند بكائه، فإنه يعرب أحيانا عن امتعاض من ألم أصابه، وأحيانا يرشد إلى أنه جوعان أو عطشان. ولقد أجاد المتنبي إذ يقول:

إذا اشتبهت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى

هذه الأعراض البدنية النفسية متلازمة غالبا. وقد تتخلف عند كبار المفكرين الذين يضبطون حركتهم، ويخضعونها للإرادة. فتراهم يضحكون في معرض البكاء متغافلين عن دعوة الوجدان، وكذلك تتخلف عند البله الذين يجهلون حقائق الأمور.

روى التاريخ أن أبا مسلم الخراساني - وهو الرجل الفذ الذي أمت الدولة الأموية وأحيا الدولة العباسية - كان لا يلعب بقلبه السرور، ولا يستفزه الغضب، يأتيه نأ الفتح العظيم فلا يظهر على محياه أثر السرور، وننزل به الفوادح فلا يرى كئيبا. كذلك كارليل وصف بيرنز الشاعر بأن المصائب كانت تصب عليه مدرارا. فيشرها عنه كما يثر الجواد الماء من شعره. ولا أنكر عليك أن التصنع من هذا القليل مخالف للطبيعة البشرية، ومهما خضع الإنسان لتصرفات الإرادة فإن الحقيقة التي

(١) هو من خدموا محمد على باشا وإلى مصر، وافتدوه بالأزواج، وهو الذي دبر للقضاء على المماليك في سعة

واحلة. "مذبحة القلعة"

الفصل الحادي عشر: نوابغ فى قوة الذاكرة

اختفت فى الصدور توشك أن تظهر دلائلها وإلى هذا يشير الأثر: « من أسر سريره ألبسه الله رداءها »، حتى إن المجرمين يقتربون الآثام بعيدين عن أعين الرقباء، وأنفسهم وحدها هى التى تفضح ما كتموه

وبعيد عن الكاتب البليغ، والشاعر المطبوع، والمصور الدقيق، أن يصيوا كبد الحقيقة فى التأثير النفسى، ما لم يدرسوا العواطف والحركات البدنية اللازمة لها، والمؤثرات التى من شأنها تحريك الهمم الفاترة، والعزائم الخاملة.

إذا عرفت هذا سهل عليك معرفة التلازم بين الحركات الفكرية والجسمية، وقد صور هذا التلازم بأمور: فإما أنه سلسلة من الحركات الفكرية التى تضم حركات الإدراك والوجدان والإرادة والحكم والإنقاذ، ويقابلها سلسلة أخرى حسية تنجم من تأثير المنظورات فى الحدة والشبكية ثم فى أعصاب البصر والخلايا المخية فالغلاف الأسمر الحساس، ثم يتدلى إلى أعصاب الحركة فالعضلات فالأعضاء المنفذة؛ وإما أن سلسلة من الأمور الحسية يتلوها من الجانبين نظام روحانى، كأن الحس بحر ذو شاطئين من القوى الروحانية؛ وإما أن العاملين: الحسى والروحانى يعملان معا فى آن واحد ولا فاصل بينهما، غير أن التأثير ذو وجهين حسى ويؤثر فى الجسم، وروحانى ويؤثر فى العقل

مذهب هربرت فى القوى الذهنية:

سبق أن أشرنا أن الملاحظة والحفظ والذكر والخيال والفكر كلها ملكات. وأذكر هنا - تكميلا للفائدة - ما ذهب إليه هربرت؛ فإنه اعتقد أنها إذا كانت ملكات أمكن كلا منها أن يقوم بنفسه، ولكننا حين نعالج الحفظ مثلا نسعى لتقويم الملاحظة والإحساس والخيال والفكر، وحين نريد تقويم الخيال نتطلع إلى تقويم القوى الأخرى، لذلك اختار أن يسميها صفات ليستفاد منها معنى المشاركة. ووراء ذلك اعتقد أن المخ يحتوى على قوتين فحسب: قوة التأثير بالمحسّات، وقوة دمج المدركات.

فقوة التأثير بالمحسّات تتولد منها المعانى والأفكار على نظام طبيعي. فإذا ائتلف جديدها وقديمها ارتبطا معا ورسخا فى الذهن، وإذا تنافر عارض أحدهما الآخر. وأفضى ذلك إلى بقاء الأنسب.

وقوة دمج المدركات مثلها كمثّل قوة هضم الأغذية، فكما أن الطعام بهذه القوة يستحيل إلى دم، كذلك المعانى بتلك القوة تتأخى وتتآزر، ويزيل بعضها غشاوة الآخر فتمتزج معا فى مادة معنوية، يسيغها الذهن ويمتصها المخ كما تمتص الإسفنج الماء، وتتوقف الحياة العقلية، وبها تتفاوت مقادير الأشخاص. والذهن حيثئذ بمعونة الخواس يدرك العالم الخارجى، ويستعين بسابق خبرته على تمحيص الأمور. إن منظر المدينة من بعيد يراه الشاعر والفلاح والمصور، ولكن مدركاتهم عنه تتفاوت بحسب ما ركز فى ذهنهم. والشمس فى طور الكسوف لا تترك فى ذهن الطفل ما تتركه فى ذهن العالم، الذى يصبو إليها نظره ويتريث حتى يستذكر ما قرأ عنها، فيعرف أن القمر حال بينها وبين الأرض فى أثناء دورانه فحجب ظله ضوءها عنا، وهى فى ذاتها لم تتغير، وهى حركات الكواكب خاضعة لقوانين يعرفها الفلكيون ويعينون منازلها بالحساب الدقيق، وبنى المنجمون عليها أحكام السعود والنحوس. نعم لا يقف ذهنه عند هذا الحد فقط، بل يتجاوزه، فيذكر عقيدة القدماء بأنها كانت معبودا، وأنها لفرط سموها، وعلو قدرها، كانت الشياطين تحاول أن تغتصب نورها فتتوارى عنهم، كما كانت تتوارى إذا انفرط فيها بينهم عقد المودة والولاء معلنة عليهم غضبها بالكسوف. حدث التاريخ أن الميدين والليدين اختصما، ودبت بينهما عقارب الخلاف، فامتثقا الحسام وما كادت لظى الحرب تستمر بينهما حتى أظلم الجو نهارا، ولبست الشمس ثوب الكسوف حدادا على ما فعلاه فاعتقدا أن إلههما غضبان من هذه الفتنة، فأغمدتا السيوف، ونشرا لواء السلم.

هذه الأفكار المتناسقة التى جادت بها قريحة المفكر عند ما أبصر ناظره الشمس فى طور الكسوف، وحائلى ذلك من أحداث جعله يفكر جيدا من أهمية الشمس، وماذا تفعل فى نفوس البشر.